الديتاكتيك والبيداغوجيا

يعتبر ميدان التربية والتعليم من أهم الميادين التي يرتكز عليها المجتمع للنهوض بمقوماته، واحد مقومات الدولة، لذا نجد الباحثين والمختصين في بحث مستمر لتنمية هذا الجانب، حيث نجد في هذا الجانب ثلاث محاور رئيسية كلها تنصب في تحسين جودة التعليم منها البيداغوجيا والديداكتيك وعلوم التربية فهناك من يميز بين البيداغوجيا والديداكتيك، فالأولى تستند إلى مجموعة من النظريات والمبادئ وتهتم بنقل المفاهيم إلى المتعلمين ومساعدتهم على اكتساب المعارف، أما الديداكتيك فهي فرع من فروع علوم التربية تستهدف جوانب العملية التعليمية لتجديد التعليم والتعلُّم وتطويره، كما تهتمُّ بالتخطيط لأهداف التربية ومراقبتها وتعديلها مع مراعاتها الطرق والوسائل التي تسمح ببلوغ هذه الأهداف.

وقد ارتبطت الديداكتيك في دراستها بعلم النفس ونظريات التعلُّم والسوسيولوجيا، واستعارت مفاهيمها من علوم ومجالات معرفية أخرى، وكانت حسب "أبليهنس" علمًا مساعدًا للبيداغوجيا، كما أسند إليها دور بناء الإستراتيجيات البيداغوجية المساعدة على بلوغ الأهداف، أما حديثًا فقد تطوَّرت الديداكتيك نحو بناء مفهومها الخاص بفعل تطور البحوث الأساسية والعلمية، وبدأت تكسب استقلالها عن هيمنة العلوم الأخرى.

1- **البيداغوجيا:** تتكون كلمة " بيداغوجيا " في الأصل اليوناني، من حيث الاشتقاق اللغوي، من شقين، هما Péda :وتعني الطفل، و Agôgé وتعني القيادة والسياقة، وكذا التوجيه. وبناء على هذا، كان البيداغوجي Le pédagogue هو الشخص المكلف بمراقبة الأطفال ومرافقتهم في خروجهم للتكوين أو النزهة، والأخذ بيدهم ومصاحبتهم. وقد كان العبيد يقومون بهذه المهمة في العهد اليوناني القديم.

فقد أخذت كلمة "بيداغوجيا" بمعان عدة، من حيث الاصطلاح، حيث اعتبرها إميل دوركهايم .E: Durkheim نظرية تطبيقية للتربية، تستعير مفاهيمها من علم النفس وعلم الاجتماع، واعتبرها أنطوان ماكرينكو A.Makarenko العالم التربوي السوفياتي: العلم الأكثر جدلية، يرمي إلى هدف عملي، وذهب روني أوبير R.Hubert، إلى أنها ليست علما ولا تقنية ولا فلسفة ولا فنا، بل هي هذا كله، منظم وفق تفصلات منطقية. والملاحظ أن هذه التعاريف، وكثير غيرها، تقيم دليلا قويا على تعقد " البيداغوجيا " وصعوبة ضبط مفهومها، مما يدفع دائما إلى الاعتقاد أن تلك التعاريف وغيرها، ليست في واقع الأمر سوى وجهات نظر في تحديد مفهوم" البيداغوجيا".

لذا، من الصعب تعريف "البيداغوجيا" تعريفا جامعا ومانعا، بسبب تعدد واختلاف دلالاتها الاصطلاحية من جهة، وبسبب تشابكها وتداخلها مع مفاهيم وحقول معرفية أخرى مجاورة لها من جهة أخرى. ولعل هذا ما يبرر سعي كل من غاستون ميالاري G. Mialaret وروبير لافون R.Lafon إلى استعمال قاموس لغوي، يحاول أن يغطي ميادين متعددة متداخلة فيما بينها

تداخلا شديدا.ولهذا الاعتبار، نأخذ بوجهة نظر التي تميز في لفظ " بيداغوجيا " بين استعمالين، يتكاملان فيما بينهما بشكل كبير وهما:

- إنها حقل معرفي، قوامه التفكير الفلسفي والسيكولوجي، في غايات وتوجهات الأفعال والأنشطة المطلوب ممارستها في وضعية التربية والتعليم، على الطفل والراشد.

2- إنها نشاط عملي، يتكون من مجموع الممارسات والأفعال التي ينجزها كل من المدرس والمتعلمين داخل الفصل.

3- **مفهوم الديداكتيكLa didactique:**

ولقد عرف محمد الدريج، الديداكتيك في كتابه " تحليل العملية التعليمية ،" كما يلي: " هي الدراسة العلمية لطرق التدريس وتقنياته، ولأشكال تنظيم مواقف التعليم التي يخضع لها المتعلم، قصد بلوغ الأهداف المنشودة، سواء على المستوى العقلي المعرفي أو الانفعالي الوجداني أو الحس حركي المهاري. كما تتضمن البحث في المسائل التي يطرحها تعليم مختلف المواد. ومن هنا تأتي تسمية "تربية خاصة " أي خاصة بتعليم المواد الدراسية (الديداكتيك الخاص أو ديداكتيك المواد) أو " منهجية التدريس ("المطبقة في مراكز تكوين المعلمين والمعلمات،) في مقابل التربية العامة (الديداكتيك العام،) التي تهتم بمختلف القضايا التربوية، بل وبالنظام التربوي برمته مهما كانت المادة الملقنة".

ورغم ما يكتنف تعريف الديداكتيك من صعوبات فإن معظم الدارسين المهتمين بهذا الحقل، لجئوا إلى التمييز في الديداكتيك، بين نوعين أساسيين يتكاملان فيما بينهما بشكل كبير وهما:

- **الديداكتيك العام:** يهتم بكل ما هو مشترك وعام في تدريس جميع المواد، أي القواعد والأسس العامة التي يتعين مراعاتها من غير أخذ خصوصيات هذه المادة أو تلك بعين الاعتبار.
- **الديداكتيك الخاص أو ديداكتيك المواد:** يهتم بما يخص تدريس مادة من مواد التكوين أو الدراسة، من حيث الطرائق والوسائل والأساليب الخاصة بها.

الانتقال من البيداغوجية إلى الديداكتيك:

من الضروري أن نقيم تمييز واضحا بين البيداغوجيا التجريبية والديداكتيك. فلقد اعتاد البيداغوجيون أن يستندوا في بناء فرضياتهم على نظريات سيكولوجية، وخاصة النظريات التي تهتم بالنمو العقلي أو الوجداني أو النفسو – الحركي للأطفال، وبذلك ظلت البيداغوجيا وفية، في معظم أبحاثها، لجذورها الاشتقاقية (طفلpeidos) وتدل على ذلك حتى الشواهد التاريخية التي أتينا على ذكرها سابقا، وإذا كنا قد تحدثنا في نفس السياق عن التفكير الديداكتيكي فقد حرصنا على استعمال لفظة تفكير متحاشين بذلك الحديث عن الديداكتيك كعلم وواضعين في عين اعتبارنا، ولو بطريقة ضمنية، أن كل اقتراح بيداغوجي، حتى ولو انطلق من تصور سيكولوجي، هو في ذات الوقت اقتراح ديداكتيكي، وأن العلاقة بينهما هي

علاقة الجزء بالكل.

البيداغوجيا التجريبية هي إذن ديداكتيك، ينقصها جزء مهم، وهو التساؤل الإبستمولوجي حول طبيعة المعرفة أي محتوى التعلم، إذ لا يكفي تقديم طريقة في التدريس أو في تنظيم وبناء المقررات... معتمدين في ذلك فقط على السؤال " كيف يتعلم الشخص؟ " ولكن لابد من طرح السؤال المكمل" وماذا يفرض تعلم المعرفة من أدوات ومناهج ووسائل؟" بل ولربما امتدت التساؤلات إلى السياق السوسيو ثقافي الذي تجري فيه عملية التعلم ذاتها.

وحتى تصبح الديداكتيك علما بالمعنى الحقيقي للكلمة كان لا بد من أن يحاول الباحثون أن يؤسسوا أبحاثهم، ليس فقط على التقليد أو النزعة الاختبارية، وإنما على مقاربة عقلانية للأسئلة المطروحة ... مقاربة معتمدة على متن من الفرضيات البيداغوجية مقاربات إبستمولوجية وسيكولوجية وربما لن يكون ذلك كافيا، لتأسيس هذا العلم الذي يحاول وضع نماذج وطرائق لتدبير النشاط العليمي– التعلمي بل لابد أن يضاف إلى ذلك كله، حس تجريبي لفحص الفرضيات وإثبات صلاحية الطرائق والنماذج والتقنيات الموضوعة أو المقترحة، ولكي تكتمل الصورة على هذا النحو، كان لا بد من الانتظار إلى حدود الستينات من القرن العشرين، حتى يصل البحث الديداكتيكي إلى مستوى محترم من النضج العلمي ويتم الاعتراف به من الناحية المؤسسة الأكاديمية، وليس في هذا القول أي إقصاء للأعمال العلمية ذات الطابع الديداكتيكي التي قام بها ممهدون من أمثال Meunann ولاي lay منذ نهاية القرن التاسع العشر، أو معاصرون من أمثال تورندايك وغيرهم. ولكن لابد من التأكيد هنا على النزعة التجريبية المغالية لهذه الأعمال وما تلاها،وعلى اقتصارها في بناء الفرضيات الديداكتيكية المختلفة على النماذج والتصورات السيكولوجية بالدرجة الأولى

المراجع

نور الدين أحمد قايد وحكيمة السبيعي، التعليمية وعلاقتها بالأداء البيداغوجي والتربية، مجلة الوحدات للبحوث والدراسات، العدد8 2010، ص33– 49.

عودة إلى تعريف الديداكتيك أو علم التدريس كعلم مستقل د . محمد الدريج

les connaissances scientifiques, (1983) cité par Astolfi , la dédactique des sciences, (1989) .6

ملاحظة:

المطلوب من الطلبة الإلمام بموضوع الديتاكتيك والبيداغوجيا والتوسع في البحث وتقديمه وفق إستراتيجية الخرائط الذهنية أو المفاهمية وفق ما تم شرحه أثناء الدرس السابق